عمر بن عبد الله

ابن أبي ربيعة

— ٣ —

جبرائيل جبور
احد اساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

﴿ شعره ﴾ انقلاب كبير هز الجزيرة هزًا ، وفتح عظيم حمل اليها مدنيات الفرس والروم ، وتطور خطير في الخلق والنظم والعادات ، وانتقال من شظف العيش الى سعته ومن فقره الى غناه ، وأبواب للهو تفتح امام مدن الحجاز وشباب أفتياء حيل بينهم وبين السياسة وحرموا ادارة الاعمال في دولة بني امية فعكفوا على لهوهم وفرغوا له ، وكان بينهم شعراء صوروا بأشعارهم هذه الحياة اللينة في تلك المدن اصطلح الادباء على ان يسموهم بالشعراء الاباحيين . وشباب في البادية ، حالتهم غير حالة أهل المدن ، حُرموا السياسة وحُرموا المال ، ولم يكونوا من القوة أو الجاه والمكانة بحيث يحدثون الفتن او يُحسب لهم حساب فانقطعوا الى شيء من اليأس والانكسار وكان بينهم شعراء اصطلح الادباء على تسميتهم بالعذريين . وكانوا كأنما ضرب عليهم ان ينشدوا ألحان الحزن ويرجّعوا صدى اليأس والفتنة في الحب وكان شعرهم بحق من ارق ما ترك العرب من الشعر الغزلي

وشعراء آخرون لم يتقيدوا في قطر واحد او فن واحد ، لم يعرفوا البث ، ولم يعرفوا العفة ولم يعرفوا الحب نفسه ، ولكنهم لم يخرجوا عن انهم شعراء يحسنون التصوير فصوروا وأتيحت بالشعراء الفنيين او الصناعيين او التقليديين تميزاً لهم عن الاباحيين والعذريين . ولم يجعل هؤلاء النزل غرضاً يقصد اليه بل استعانوا به كوسيلة الى غيره من الاغراض

ونريد ان نلاحظوا شيئاً وهو ان النزل الاباحي والعذري لم يُعرفا بوجه عام عند غير شعراء الحجاز . اما النزل الفني فقد عرفته شعراء الاقطار الاخرى وأجاد بعضهم فيه وكلكم يعلم ابيات جرير التي فيها

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله انسانا

واريد ان اقيد ملاحظاتي هذه في انهُ ليس من اللازم ان يكون كل شاعر أوتي الغزل وحرم السياسة وعاش في المدن اباحيًّا، ولا كل شاعر حرم الغزل والسياسة وبدا كان عذريًّا، ولا كل شاعر غير حجازي كان تقليديًّا. فقد كانت هنالك احوال خاصة دفعت بعض الشعراء الى ان يشذوا عن هذه القاعدة. واذا سألني سائل ومن اي فريق كان عمر أجبته على الفور من كل من هؤلاء. ولكنهُ كان اباحيًّا قبل كل شيء وعذريًّا بعده وقتيًّا في الموضع الثالث. فقد احب وصدق وفتك حينًا واحب وصدق وعف حينًا آخر ولم يصدق ولم يحب، بل لعله لم يعرف هذا المحبوب الذي وضع فيهِ شعره الغني حينًا ثالثًا. وشعره خير شاهد على ما اقول. ففيه قصائد اباحية يسرح فيها بفتكه وعبثه واخرى عذرية تمثل الحب البريء الصادق وان تكن رنة الشكوى والعذاب والحزن والاستسلام الى اليأس غير قوية كما هي في سائر الشعر العذري. وله قصائد لم ينظمها فيما أرى الا لان المنين او غيرهم قد ألحوا عليهِ في ان ينظم لهم فنظم

ولكن عمر كان يختلف عن غيره من الشعراء الذين عاصروه في انهُ الشاعر الوحيد الذي صور لنا حياة المدن الاجتماعية البهجة ولا سيما ذلك الجانب منها الذي يتعلق بالمرأة وصلة عمر بها فكان شعره من هذه الناحية سجلاً للحياة التي عاشها وصورة للعواطف التي اضطربت في نفسه. ونحن وان كنا نعلم انهُ ليس من اللازم ان تكون كل الحوادث التي ذكرها في شعره قد وقعت لهُ حقًّا فاننا نرى ان تعبيره عن احساسه قد استمده من حياته الخاصة. ونرى اشخاص شعره مخلوقات حساسة محزنة بارزة تتكلم وتتحرك وتلعب دورها في الحياة

هوذا الحديث قد طال ولم اصل بالقارىء الى درس شعر عمر ودرس اثره في نفوس معاصريه وتابعيه. فلقد كان حقًّا يفتن شعر هذا الشاعر الذي استطاع ان ينال اعجاب اعظم فقهاء الحجاز فيصرفهم في كثير من الاحيان عن جد الحياة الى هزلها. وليس لديَّ متسع لاسرد خبر عمر ينشد رائيته طلحة بن عبدالله بن عوف الزهري فما يزال هذا واقفًا شاخصًا ناقته حتى تكتب لهُ القصيدة او خبر عمر مع عبد الله بن عباس وقد وفد على هذا رئيس الازارقة يسألهُ في الدين فينصرف عنهُ ويميل الى عمر يستمع الى شعره. فيقول ابن الازرق: الله يا ابن عباس أنا نضرب اليك اكباد الابل من اقاصي البلاد ونسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك سفهاً وتستمع اليهِ! فيذكر ابن عباس ان في هذه القصيدة سفهاً ويقول انها من آل لم وانا نستجيدها. أو أسرد خبر الامام سعيد بن المسيب يفاخر الناس بشعر عمر

وأي أثر قد تركهُ في نفوس النساء ذلك الشعر حتى صار الرجال يرون حرجاً عليهن ان يعرفن

شعر عمر فقالوا ما دخل على النوائح في خدورهن شيء أضر من شعر ابن ابي ربيعة . ورأى بعضهم جارية تدخل على اهله حاملة دفتراً فيه شعر عمر فقال لها . ويحك تدخلين على النساء بشعر ابن أبي ربيعة ! ان لشعره لموقعاً من القلوب . ومدخلاً لطيفاً ولو كان شعر يسحر لكان هو فرجعي. وقال بعض الرواة أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بسر ابن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسيب . وكانوا يستحسون منهُ ما يستقبحونهُ من غيره وكأني أراه الآن قد غلب على قلوب القرشيين فالت أهواؤهم اليه وملك عليهم نفوسهم فخضعوا لسحره حتى صار يقال اذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه بشعر ابن أبي ربيعة ولحن ابن سريج فانك ترقصهُ ترقيصاً

وأما أثره في نفوس الشعراء من معاصريه فلم يكن قليلاً ولقد اجتمع اليه الفرزدق واستنشده من شعره فأنشده احدى قصائده فصاح الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس ، لا تحسن والله الشعراء ان يقولوا مثل هذا النسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرقة . وسمع جرير بعض شعر عمر فقال : ان هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي . أما جميل بن معمر زعيم العذريين فقد تعارض وعمر فلما أنشده عمر لامتهُ قال جميل : هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيني الليالي ، والله ما خاطب النساء بخاطبتك أحد قط

ولم يفت النقاد أن يلتفتوا الى شعر عمر فانهم أكثروا عليه ولقد حفظ عن مصعب الزبيري نقد لشعر عمر تكاد كتب الادب لا تحفظ نقداً أطول منه لشعر شاعر

ولكن أحقاً كان عمر كل هذا ، أم ان هؤلاء القدماء قد عودونا أن يقولوا في كل شاعر مثل هذا ؟ الواقع هو أن للقدماء آراء في النقد هي في كثير من الاحيان قليلة القيمة بعيدة كل البعد عن شروط النقد الصحيح ، ولكن هذا الاجماع على الاعجاب بعمر نكاد لا نراه عند هم لغير عمر . ويفرض عمر نفسه على كثير من الادباء والنقاد والشعراء المتأخرين ويبقى أثره في الاجيال التي تلته بحيث لا نكاد نرى الآن كتاباً لأديب أو مؤرخ أو معجماً واسماً الا وقد ضمن شيئاً من شعر عمر . حتى اذا جاز الادب العربي عصر الظلمات وانبثق فجر النهضة الحديثة لم يفت العلماء من عرب ومستعربين أن يلتفتوا الى عمر

ولعلّ أول من تنبه اليه مستشرق انكليزي باسم بلكريف فكتب رسالة عنهُ وترجم شيئاً من شعره قبل سنة ١٨٧٢ . وكان روكرت الالماني معجباً بعمر وقال عنهُ انهُ أعظم شاعر في الغزل عند العرب . وقد حاول جمع شعره ليترجمه الى الالمانية فات قبل ان يتم لهُ ذلك فنهض بعض هذا العبء بعده بول شفارز الالماني وترجم خمس قصائد ونشرها سنة ١٨٩١ . ثم نشر كل ديوانه بين ١٩٠١ و ١٩٠٩ ولست مبالغاً اذا قلت انهُ قد نال شعر عمر من العناية على يديه مالم ينله ديوان شاعر عربي حتى الآن

وانبرى المستشرقون يثنون على عمر قدحه بركلن ونكلسن. وما قاله الاخير: انا اذا استعرضنا شعراء الحجاز في عصر بني أمية فالزعامة لعمر وهو حامل لواء الشعر الغزلي. وقال عنهُ « حبب » في بحثه عن نشأة الغزل: وان أعظم حامل بين هؤلاء الشعراء الغزلين وأولاهم ذكراً لعمر ابن أبي ربيعة دون جوان مكا وأوفيد العرب والشرق

واذا تركتم هؤلاء المستشرقين وانتقلتم الى أدبائنا العرب تروْن عناية جلى والتفاتاً عظيماً وثناء كبيراً فقد كتب الدكتور ضيف رسالة باللغة الفرنسية قدمها الى السربون وقابل فيها بين عمر والفرد دي موسيه. ووضع الدكتور زكي مبارك رسالة في حب ابن أبي ربيعة وخصص الدكتور طه حسين جانباً من أحاديثه الادبية لدرس عمر. وأكتفي بنقل عبارة كتبها الدكتور طه في عمر تقديراً لهُ: « فعمر اذن زعيم الغزلين الاموين لا يستثني منهم احداً ولا تفرق بين اهل البادية واهل الحاضرة بل نحن نذهب الى أبعد من هذا فنزعم ان عمر ابن ابي ربيعة زعيم الغزلين في الادب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين اطواره منذ كان الشعر العربي الى الآن »

وتقول بعد هذا: وما هو هذا الشعر الذي سحر القدماء وخلب ألباب المحدثين؟ فارجو ان تمنحني شيئاً من الوقت احاول فيه درس بعض الظواهر في هذا السبيل

لعلك لاحظت من حديثنا عن عمر انه قصر شعره على وصف المرأة فهو من هذه الناحية شاعر كان من أسبق الناس الى التخصص — هذه الظاهرة القوية في نهضة العلم العلمية اليوم — وكان موضوع دراسته المرأة فهو لا يصف الا المرأة ولا يلتفت الى شيء اذا لم تكن فيه المرأة حتى الحج ومشاعره فانها لم تكن لتستوقف نظره اذا تفيت عنها المرأة

ولقد لقيهُ سليمان بن عبد الملك فقال: ما يمنعك يا عمر من مدحنا؟

قال: انا لا أمدح الرجال انما أمدح النساء. فكان كالطبيب المتخصص تسألهُ ان يعالجك من امر ليس من اختصاصه فيقول لك: ليس لي يد بهذا اذهب الى فلان انما اعنى انا بكذا وكذا من الامر

وبعد أوليس من الطبيعي ان يعنى الناس بقول هذا الذي تخصص في حب النساء؟ نعم! ومن هنا كان بعض تشوق الناس الى استماع شعره فيهن. وقد كان الامام ابن عباس يقول هل حدث هذا المغبري شيئاً بعدنا. وقد ادرك القدماء هذا في عمر فقال جرير وقد سأله بعض المدنيين ان ينشدهم من شعره: انكم يا اهل المدينة يحجبكم النسيب وان اسب الناس المخزومي. وقال آخر: ان عمر لزم مذهباً واحداً لم يجاوزه فأكثر فيه وأجسن. وفي تخصصه توصل الى استعراض امور دقيقة في الحب وحياة النساء لم يعرفها او لم يذكرها اسلافه ومعاصروه وشهر في هذا الامر بحيث صار اماماً لشعراء الغزل. وقد كان الغزل قبله وسيلة للغاية واستمر عند

بعض الشعراء هكذا حتى اليوم . اما عمر فقد جعله غاية تقصد وسن بذلك طريقاً للغزليين . وشعر عمر من هذه الناحية — في نظري — خير مصدر تاريخي لدرس المرأة الحجازية في ذلك العصر من حيث عاداتها واخلاقها ولبسها وحريتها ومكانتها وتفكيرها وربما بعض تعابيرها . ولقد يدهش بعض نساء هذا العصر اذا عرفن ان النساء زمن عمر كن ينجملن مثلهن فيرققن حواجبهن ويقوسنها ويصففن شعورهن على طريقة خاصة ويلبسن الرقيق الحريري من الثياب يشف عما تحته من ناعم الاجسام

شفّ عنها مرتق جَنَدِيٌّ فهي كالشمس من خلال السحاب

والظاهرة الثانية هي قصة القصص في شعره ويتفرع عن هذا أمران — المحاورة بين اشخاص قصة ووحدة المعنى واللفظ في القصيد

ينعى بعض النقاد المحدثين على الشعر العربي القديم خلوه من القصة ولعلهم مخطئون اذ يجب ألا يتبادر الى اذهان الناس ان كل الشعر القديم قد خلا من القصة فقد حاول امرؤ القيس وغير امرىء القيس ان يسردوا اخبار حبهم في شعر قصصي ، وهم وان لم يوفقوا فقد طرقوا باب القصة . اما عمر فقد ابرز القصة في شعره للعيان بحيث لم يترك للشراح والمفسرين مجالاً للتعليق

وقد سرد عمر في هذا الشعر القصصي اكثر وقائع حبه ولعله وضع واختلق وقائع لم تجر له . وفي هذه المحاولة لسرد اخباره مع صاحباته انطق اشخاص قصته فبدت ذوات حية وتعرض لذكر الاحاديث والمحاورات التي كانت تدور بينه وبين بعض صواحبه او بين احداهن واخرى من اترابها وهي صعوبة في نظم الشعر لا يستطيع التغلب عليها الا المطبوعون على سرد القصص . وقد وفق عمر في هذا فادهشت هذه الظاهرة جميل بن معمر فقال لعمر والله ما خاطب النساء بخاطبتك احد قط . وقال بعض النقاد مقابلاً بين لامية لعمر واخرى لجميل « لو ان جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لارجح عليه وعز كلامه به »

وقد اضطر عمر بحكم هذه المحاورة والقصص الى جعل القصيدة وحدة كاملة والى وصل البيت الواحد بالبيت الآخر في بعض الاحيان بحيث تصبح الرابطة محكمة وبحيث يصبح من العسير ان تقدم او ان تحذف بيتاً من القصيد . لقد سمعنا من كثيرين ان الشعر العربي قبل ابن الرومي خلا من هذه الوحدة . وان الوحدة في الشعر العربي هي البيت . بينما هي في الشعر الافرنجي القصيد كله فليسمح لي القارىء ان انبه الى ان شعر عمر يخالف هذا الزعم ولعل عمر قد تعمد هذا الامر تعمداً ويطول بي المقام اذا جئت استعرض قصائد عمر المرتبطة الابيات معنىً ولفظاً ولكني لا ارى بدّاً من ذكر قصيدة صغيرة هي في نظري من اضعف شعره ولكنها خير ما يمثل هذه الوحدة . واود اولاً ان استشهد بقطعة نثرية في موضوع الحب قسه لاحدهم اقابلها

فيها : « قال : اما تعلم ان الحب داء ؟ أما والله لو حملت منه كما حملت من حب رخيم ، لما لمت على الحب ! فدعني وما اطلب ، اني لست ادري بما قتلت ، الا اني بينا انا بباب القصر في بعض ما اطلب من قصرهم اذ رمى شبه غزال بسهام فما اخطأ سهامه ولكنها عياء سهمان له كلما أراد قتلي بها سلم »

هذه قطعة نثرية كما يرى تامة السبك ملتحمة النسج لا بأس بمتانتها لولا موضع او موضعان وقد يُريد القارىء ان اسرد له قصيدة لعمر في هذا الموضوع اقابلها بها ولعله يُدهش اذا زعمت له ان هذه القطعة من قصيدة لعمر . وسأسردها شعراً دون تغيير حرف واحد :

يا ذا الذي في الحب يلحى أما تخشى عقاب الله فينا أما
تعلم ان الحب داء أما والله لو حملت منهُ كما
حملت من حب رخيم لما لمت على الحب ! فدعني وما
اطلب اني لست ادري بما قتلت الا اني بينما
انا بباب القصر في بعض ما أطلب من قصرهم اذ رمى
شبه غزال بسهام فما اخطأ سهامه ولكنها
عياء سهمان كلما اراد قتلي بها سلما

واريد ان تلاحظ ان عمر قد قيد نفسهُ فيها بالقافية الواحدة في صدور الابيات وانجازها ويكاد هذا وحده يشير الى ان عمر قد تعمد الامر تعمداً ليضع فنّاً جديداً . . . . .

ثم هناك امر آخر دعا الناس في نظري الى حب شعر عمر هو روح عمر وانا ادري ان لنفس الشاعر قبل كل شيء اثراً كبيراً في تقريبه الى الناس ، فكلما كانت هذه النفس محببة الى الناس كان الشعر موضع اعجابهم وحبهم ولسل الادباء يلمون معي ان حافظاً لم يكن بمنزلة شوقي في الشعر ولكنهُ نال من حب الناس واعجاب النقاد مثل ما نال شوقي ان لم يكن اكثر وذلك لان نفس حافظ كانت اقرب الى هؤلاء الناس من نفس شوقي . وكانت نفس عمر رضية هنيئة وادعة على دعابة مرحة جذابة حلوة فراق الناس اصطحاب هذه النفس وحبها حتى ان ابن عتيق قال لعمر : اف لي على الدنيا بعدك يا أبا الخطاب

وكان عمر مع صاحباته خفيف الظل لطيف الروح حسن المشر فكنّ يتشوقن الى لقياه وكان يطعمهنّ احياناً على اشاره التي قالها فيهنّ . ولم يكن عمر من هؤلاء الاباحيين الذين اذا تم لهم عيشهم لم يهمهم من شأن صاحبهم شيء بل تركوها مضغة في افواه الناس . كلا فقد اصطنع ألوان الكلام ليكني عن اسم حبيبته باسم آخر وكان يذكر في اكثر قصائده ان لهوه مع حبيبته لم ينقض بغير السمر البريء والحديث اللذيذ وهو حتى في مواقفه الاباحية الصريحة ، وهي قليلة

في الديوان لم يسمّ اسم واحدة بينها ونحن الآن لا نعلم من هي نعم هذه التي شغلت قسماً كبيراً من ديوانه (والتي يقال انها نزلت على غدير وارتحلت فنزله عمر وظل يرد منهُ حتى لشف) وعمر عفيف في لفظه وفي تعابيره وليس هناك في كل الديوان كلة واحدة بديئة وعصره عصر الاحوص والعرجي وافرزدق وجرير

ولا اذكر هذه الناحية في عمر الاّ وتبدو امامي صورة تعاكسها في بشار الذي كان اعجاب بعض الناس بشعره عن رهبة وتملق . فله موقف في قصيدة يظهر فيها بشكل لم ار أقبح منهُ في عجب بعد عتبه مع صاحبته التي أغواها وأغراها فقبلها وجرح شفتها يقول بلسانها :

كيف بأمي اذا رأت شفتي أم كيف ان شاع عنك ذا الخبر

فيجيب : قولي لها بقة لها ظفر ان كان في البق ما له ظفر

ارأيت سخرية بالحب وازدراء بالحبيب مثل هذا القول : قولي لامك ما تشائين فبشار السمج لا يعنيه امرك بل هو يسخر بك ويزدري حبك ويسير عن هذا بقوله :

قولي لها بقة لها ظفر ان كان في البق ما له ظفر

وأين هذا من روح عمر وقول عمر الذي يحق له ان يدل :

لو كفي اليمنى ساءتك فظمّها ولذقت بصدرضاك عيش الاجذم

أو هنيئاً لاهل العامرية نشرها البـــذيذ ورياها الذي اتذكر

او ان اهوى البلاد شخصاً اليّا والذ البلاد لمياً ودلا

لقيتي بالبلاط امست تشكي رمداً ليتهُ بعيني حلا

يقول وهل هذا كل ما في شعر عمر وأنا اقول لا وأنت تعلم ان في الشعر شيئاً لا يقاس بمقاييس مادية او روحية يعرفها الناس فأنت تعجب بشعر وتعجز عن ان تصل الى هذه المواطن فيه التي استثارت اعجابك او طربك . فليست العاطفة ولا الخيال ولا حسن التصوير ولا الابداع في الديباجة ولا رقة الشعر وموسيقاه ولطف روح صاحبه هي كل ما في الشعر ، بل هناك ما هو أعمق من هذا وأكثر تعقداً منهُ وأرجو ان يتنبه اذا سميت ذلك سحر الشعر

وأنت فوق هذا كله ترتاح الى شعر عمر لما فيه من تمثيل صحيح لنفس صاحبه ولنفس فتيات صاحبه ولروح هذه الجماعة التي عاش بينها وتطلق الى شعر عمر لما فيه من صدق اللهجة وطيب القلب وجمال هذا الطبع الذي جمع بين سذاجة الحياة البدوية الاولى ولينها وظرف الحضارة الجديدة وطلاوتها . ويكفي ان اقول ان عمر شعر وأحسّ فجرى لسانهُ بما احسّ وشعر